الفصل الثانى

الطبيـعة

يعتبر مفهوم الطبيعة ثانى مجالات الفلسفة الدينية الذى يظهر فيه التوفيق بين الدين والفلسفة عند « رويس » .

أولاً : الطبيعة الإجتماعية :

يرى « رويس » أن دائماً مايتم الفصل بين الطبيعة الإجتماعية والطبيعة المادية ، فيدرك الإنسان من جهة « الطبيعة » بوصفها سلسلة من الظواهر الموضوعية المرتبطة بسلسلة من القوانين الثابتة ، أى بإعتبارها « عالم الوصف » ، ويـدرك من جهة أخرى « العالم الإجتماعى » بوصفه عالم العمليات الإرادية الواعية ، عالم الأفراد ، أو بإعتباره « عالم التقدير » . وبذلك يصبح هناك تفسيران للعالم المعروف ، أحدهما مادى والثانى إجتماعى ، مع يأس من إكتشاف أى رابطة معقوله بين العالم الطبيعى والعـالم الإجتماعى ، أو بين المادى والعقلى ، الضرورى والحر ، والحقيقة أنهما عالمان متباينان ومتـحدان فى نفس الوقت (١) . وإذا ما تم تحديد المقصود بالطبيعة والمقصود بالعقل ، ومعرفة الدوافع الأساسية لإعتراف الإنسان بالعالم الطبـيعى ، وبالعـالم العـقلى ، يتم إكتشاف الوحدة بين العالمين .

أ – الصفات المشتركة بين العقل والمادة .

ويوضح « رويس » أن الطبيعة الواعية تشارك الطبيعة المادية فى عمليات أربع :

فأولاً : تخضع كلتاهما لمبدأ « عدم عكس عملياتهما » ، بمعنى أن ما يحدث ، لايعود للحدوث مرة ثانية ولا يتم إلغائه . والحقيقة أن هذا المبدأ ينتشر فى الطبيعة كلها ، وحقيقى وواقعى مثل الطبيعة ذاتها ، ويقترح فى نفس الوقت ، وجود نوع من التأثير الباطنى على

(١) J.Royce : TheWorld And The Individual , P.II p.158.

الطبيعة المادية ذاتها ، وبأن الطبيعة المادية من الممكن أن تكون مظهراً لعملية تغير وتحول باطنى ، مثل العمليات العقلية ، وإن كانت تتم بمعدل زمنى مختلف .

وثانياً : يتضمن كلا الجانبين للطبيعة ، إتجاه كل جزء إلى الإتصال بالأجزاء الأخرى ، وتأثر مايحدث فى مكان ما ، بما يكون قد حدث فى مكان آخر . فتتجه « الأفكار » فى الوعى الذاتى إلى التواصل والتوافق مع الأفكار السابقة ، وتتأثر وتتوافق العقول الإنسانية مع بعضها البعض فى العلاقات الإجتماعية . فتتشابه تلك العمليات مع سلسلة من العمليات الطبيعية المادية أو ما يسمى فى العلم « بحركة الأمواج » . لذلك يعتبر مبدأ « الإتصال المتبادل » ، مبدأ سائداً فى الطبيعة كلها ، ويرتبط بالمبدأ الأول ، أى مبدأ « اللاعودة » أو الإلغاء للعمليات التى تمت وإنتهت .

وثالثاً : يتشابه كلا من العقل والمادة فى عمليات تشبه العمليات العقلية المساة « بالعادات » ، فتحدث الظواهر الطبيعية بإيقاعات منتظمة ، مثل دقات القلب ، ودوران الأرض . وهناك إنتظام فى الظواهر الطبيعية يشابه « حياة العادة » فى العمليات العقلية . فالعادات عبارة عن ميول للإنتظام والتناغم فى الحياة الواعية ، وعن إيقاع يغلب على كل العمليات والإتجاهات ، ويكون استمرارها مثل القانون الطبيعى .

ورابعاً : يحدث تشابة فى العمليات المشتركة بين الجانب الواعى والجانب اللاواعى فى الطبيعة فى عمليات التطور ذاتها – فلم تعد العمليات التطورية المستمرة من اللاعضوى إلى العضوى ، السمة الوحيدة لشراكة العقل والمادة ، وإنما أصبحت واحدة من العديد من العمليات ، التى تشترك وتتشابة فيها عمليات الطبيعة الواعية واللاواعية .

والحقيقة أنه إذا ماتم النظر لهذه العمليات المشتركة والمتشابهة بين جانبى الطبيعة ، فمن الواضح أن التضاد والتباين بين المادة والعقل ، لايعد حقيقياً ، وإنما ظهر نتيجة المبالغة فى دقة النظريات العلمية . فحقيقة يضع العلم تصورات نظرية دقيقة ، ولكن إفتراض

صدقها ، أدى إلى إعتبار المادة « جوهر ثابت » ، فإذا ما إستمر التطور وعملياته ، يصبح الوعى نتيجة للصدفة ، ومظهراً لا يعرف أحد جوهرة أو حقيقته . إن العقل والمادة متصلان ومتماثلان ومتناظران (١) . ويؤكد « رويس » أنه لا توجد هناك طبيعة « لاواعية » ، أو مادية ، وإنما توجد طبيعة « صامتة » ، تحدث عملياتها العقلية ، بمعدل زمنى يختلف عن المعدل الزمنى للعمليات العقلية التى تحدث للإنسان . ولذلك يصبح للطبيعة جانبان ، يتعامل معهما الإنسان بإعتبارهما مظهرين لعملية عقلية واسعة . قد تختلف علاقاتهما الزمنية ، ولكن لهما صفات واحدة . وتبعا لذلك يصبح التطور عبارة عن سلسلة من العمليات ، التى تظهر بإعتبارها أنماطا مختلفة لعمليات عقلية واعية ، تتشابه مع حالات وعمليات العقل الإنسانى ، والأفراد ، وتختلف فى حالة المادة اللاعضوية . وعندما يتعامل الإنسان مع الطبيعة ، يكون كلاهما جـــزءاً من « وعى أكبر أوسع » ، ويتشابهان فى تكوين وتشكيل عادات متكررة وثابتة ، وفى ترك « أحداث » ومواقف قديمة من الخبرة ، خالدة لا تمحى . ويكون هذا الدور أو الإنتقال بين القديم « الخالد » « والمتكرر » ، وبين العادة والجدة ، بين الإنتظام والإيقاع واختفائه ، شيئاً واضحاً فى كل مكان فى الطبيعة وفى العقل الإنسانى أيضاً . ويمثل كفاحاً تجاه المثل العليا ، وعبارة عن عملية مستمرة للبحث عن الأهداف بدون نهاية ، وتظهر فيه عوالم جديدة للخبرة ، مرتبطة بالخبرات القديمة ، وتختلف سرعة ظهور العوالم الجديدة ، فتكون بطيئة فى الطبيعة اللاعضوية ، وسريعة جداً فى العقل الإنسانى ، ولا يعنى هذا البطئ فى الطبيعة ، أنها على درجة أقل من الوعى الإنسانى (٢) .

ب – الوعى الإنسانى والوعى والطبيعى

والحقيقة أن الوعى الإنسانى يرتبط بمدة أو فترة زمنية معينة للإدراك ، وتكون علاقته بالزمن ثابتة . فعندما يدرك الإنسان شيئاً فى الداخل ، قد يحدث تغير فى محتويات الوعى ، ولكنه لايكون سريعاً أو بطيئا . بينما عندما يلاحظ شيئاً فى الخارج ، فإنه لايستطيع مثلاً ملاحظة « حدث » فى جزء من الثانية ، ويختلط الحدث بنتائجة ، التى يمكن ملاحظتها بعد

---

(١) Ibid., p. 222.
(2) Ibid., p.227.

حدوثه . من جهة أخرى ، إذا ما إستمر « الحدث » أكثر من عدة دقائق فإنه لا يشكل لحظة كاملة من لحظات الوعى الإنسانى ، معنى ذلك أن علاقة الإنسان بالزمن علاقة ثابتة ، حتى يستطيع أن يدرك سرعة أو بطئ الأحداث الخارجية . والواقع أن ذلك ينطبق أيضاً على الطبيعة ، فالوعى الباطن للطبيعة تكون مرتبطاً بمدة زمنية معينة ثابتة . ولذلك يظهر الجانب اللاعضوى من الطبيعة ، بإعتبارة دلالات ظاهرية لكائن ، إحتاج لملايين السنين لتكتمل لحظة وعية ، وظهر ما يلاحظه الإنسان فى الطبيعة ، بإعتباره علاقات ظاهرية ، وبإنه وعباره عن وجود رتيب ثابت ، لا يبدو متغيراً للوعى الإنسانى، بينما يكون وجود هذا الجانب من وجهة نظر هذا الكائن ، وفى حياته الباطنية ، وجوداً واضح التغير لذلك يمكن القول بأن « الطبيعة » دلاله أو علامة على وجود وعى محدود غير الوعى الإنسانى ، تختلف فترة إدراكه الزمنية عن فترة إدراك الوعى الإنسانى ، ولكنه لا يكون أقل معقولية أو موضوعية أو كرامة أو إرادة عنّ الوعى الإنسانى ، بل قد يكون مساوياً للوعى الإنسانى أو أرقى منه ، ومهما بدت وقائع الطبيعة الخارجية ، التى تعد مظهراً له لا عضوية ، فإن عملياته الداخلية ، تكون متواصلة وثابته ، وتؤدى إلى ظهور وقائع وإنقسامات جديدة على مر الزمان (١) .

وبذلك يمكن تفسير التطور فى الطبيعة ، بأنه عبارة عن إتصال باطنى بين عدد كبير من الأقسام المنفصلة المتواجدة فى هذا العالم من الحياة الواعية ، ولمعرفة كيف تظهر عوالم جديدة من الخبرة الواعية . فإنه يمكن ملاحظة ما يحدث فى عالم العلاقات الإجتماعية ، عندما يحدث إتصالاً بين « فرد» ما، مع وعى ما «آخر» يكون سابق الوجود علية ، فيثير فيه مثلاً وأفكاراً جديدة وذات وشخصية جديدة (٢). ويرى « رويس» أنه إذا ما صح هذا التفسير لعملية التطور ، تكون كل التغيرات التطورية فى هذا العالم ، قائمة على عمليات تتصف بصفات ثلاث ، الأولى أنها تكون عمليات متدفقة ، مليئة بتغيرات محكومة لأهداف مثالية ، والصفة الثانية أنها تكون – كما يحدث فى العمليات الفكرية الإنسانية – متصلة بعمليات آخرى تحدث فى أقسام أخرى ، والصفة الثالثة ، أنها تتجه وسط كل التغيرات للحصول عل عادات محددة ، فإذا ما نظر الإنسان للطبيعة نظرة شاملة تظهر له هذه

---

(١) Ibid., p. 229.

(٢) Ibid., p.230.

العادات فى صورة إيقاعات منتظمة وتيبة ، بسبب التأثير الإدراكى لحدود الخبرة الإنسانية ، والحقيقة أن كل ظاهرة طبيعية ، إذا نظر إليها من الداخل ، تكون فى حد ذاتها تحقيقاً لمثل أعلى ، فلا وجود لطبيعة ميتة ، أو لطبيعة لا عضوية أو لا واعية ، بل هناك حياة وكفاح ومثل عليا تتحقق (١) . ويؤكد « رويس » من جهة أخرى ، أن هذا التشابه بين العمليات الطبيعية والعمليات الإنسانية ، لا يعنى مطلقاً أن الهدف الوحيد للطبيعة ، يتمثل فى خدمة الإنسان ، أو قد يعنى تشابه الإنسان مع الحيوان ، فى درجة الوعى والمدة الزمنية للوعى ، فعندما يتعامل الإنسان مع « الحيوان » لا يكون الحيوان عاقلاً أو لا عاقلاً ، وإنما يظهر كجزء من المعقولية بالنسبة للنوع كله ، فلا يكون الحيوان المفرد مخلوقاً عاقلاً ، وإنما يكون جزءاً مؤقتاً من « شخص » (نوع) ، تكون فترة وعية الزمنى أطول من فترة الوعى الإنسانى . تماماً مثلما تكون الكلمة فى العبارة اللغوية ، جزءاً من معنى العبارة كلها . فالفرد من أفراد الحيوان ، يكون جزءاً من حياة واعية حقيقية ، لها مثلها العليا وحياتها وأخلاقها ، وذلك ما يبرر صداقة الإنسان للحيوان . وينطبق ذلك على الجماد ، فلا يعنى وعى الطبيعة أن « المنضدة » مثلاً كائن ، أو مدرك ، وإنما يعنى فقط أنها جزء من حياة عقلية واعية . كما ينطق ذلك أيضاً على النوع الإنسانى ، فأفراد الإنسان ، ما هم إلا جزءاً من خبرة واعية محدودة ، ذات فترة زمنية أطول الأطول من الوعى الزمنى للفرد العادى عن أفراد الإنسان ويظهر هذا الوعى المحدود ذات المدة الزمنية الإطول ، فى عمليات الذاكرة وغريزة النوع الإنسانى ويكون كائناً حياً ومتفرداً وعاقلاً ومستمراً مع كل فرد من أفراد البشرية (٢) .

جـ – أسبقية الإعتقاد فى وجود الآخرين

كذلك يؤكد « رويس » أن الإعتقاد فى « وجود الطبيعة » لا ينفصل عن « الإعتقاد فى وجود الآخرين » ، ولا يمكن فهم أى من الإعتقادين منفصلاً عن الآخر . ومهما كان الواقع العميق وراء الطبيعة ، فإن عالم المادة والقوانين ، يكون عالما قابلاً للمعرفة لكل الأفراد بنفس الصورة التى يكون بها معروفاً بها لأى ذات فردية ، وإذا ما تم إستبعاد الإعتقاد فى وجود

---

(١) Ibid., p. 231.

(٢) Ibid., p.233.

الآخرين ، أو العامل الإجتماعى عموماً ، يحدث تغيير فى نظرة الإنسان للطبيعة وتتبدل صفاتها الأساسية (١) . حقيقة قد لا يكون كل ما يوصف بالوجود أمراً معروفاً لكل الناس ، فالمؤمن يعتقد فى وجود الله ، بالرغم من عدم معرفة كل الناس لهذا الوجود . وعندما يكون هناك سر بين فردين ربما يظل غير معروف لكل الناس بالرغم من وجوده ، وإعتقادالفرد في وجو د « عقل » جاره ، لا يستند على معرفة ما يدور فى داخله . ولكن كل هذه الأنماط من الوجود تختلف عن نمط الوجود الذى توصف به الأشياء المادية ، فإذا ما قال فرد ما ، بوجود موضوع مادى هناك ، وأنه يستطيع رؤيته ولمسه و لم يستطع أى فرد آخر رؤية أو لمس هذا المضوع الذى يقرر وجوده ، فإن هذا الموضوع ، لن يكون إلا وجوداً فى الذهن أو حالة نفسية أو نوع من الوهم ، لدى هذا الفرد ، لذلك إن الحكم بوجود الطبيعة ، يعنى أن كل الناس لديهم القدرة على كشف نفس الظواهر الطبيعية ، وما عالم الظوهر الطبيعية ، إلا عالم التجربة الإنسانية المشتركة (٢) .

كذلك يلاحظ « رويس » أن الإعتقـاد فى وجود الأخرين يسبق الإعتقاد فى وجود الطبيعة ، ولا يتم الإعتقاد فى وجودهم من المماثلة بين ما يحدث داخل الذات ، وما يقوم به الآخرون من أفعال فى « الخارج » تم الإستدلال على وجودهم ، وإنما الحقيقة أن « الذات » تعتقد أولاً ، وتعرف وجود الآخرين قبل أن تعرف نفسها ، أو معرفة ذاتها . فيعرف الفرد بوجود الآخرين ، وبوجود حياتهم الفكرية ، لأنهم يشكلون مصدراً لأفكاره ، ويحققون أهدافه الجزئية ، وطالما أن ما يحقق هدفاً ، يوصف بالواقعية والوجود فإن للآخرين وجوداً واقعياً (٣) . وتبين العلاقات الآجتماعية ، تعامل الأفراد مع وقائع مشتركة بينهم ، يستطيع كل فرد منهم ملاحظتها ، ويدرك عدم إنتمائها إلى ذاته أو للآخرين من بنى جنسه ، فهى عبارة عن أدوات مشتركة بينه وبين الآخرين ، يهتمون بها مثله ، ويساعدوه على تحقيق أهدافه فيها ، ولئن كان الفرد مع نمو الخبرة بمسائل الحياة يشعر بإستقلاله عن الآخرين ، إلا إن هذه الموضوعات الملاحظة ، تظل هناك بإعتبارها عالماً مشتركاً يظهر بينه وبين الآخرين ، ويربط حياته مع حياتهم . حقيقة قد تبدو العقول الفردية منفصلة ، ولكنها تكون

---

(١) Ibid., p.168.

(٢) Ibid., p.170.

(٣) Ibid., p.171.

على علاقـــة بالموضوعات ، وتدركها بإعتبارها مادة لها وجوها الخارجى المنفصل عنها ، حتى تصبـح قـادرة على الدخـول فى علاقات مع بعضها البعض ولذلك . يـؤكد « رويس » وجود « الفرد » و« الأخر » و« الطبيعة » بينهما . فعندما تشرق الشمس مثلاً ، ويراها الفرد ساطعة ، فانه يدرك من العلاقات الاجتماعية ان الاخرين يرونها مثله ، وأن لها وجوداً مستقلاً عن الأفراد ، فتشرق الشمس مستقلة عن الأفراد ، بينما يكون شروقها ، أمراً يقبل التحقق من قبل أى فرد – لذلك تبدو الموضوعات المادية مشتركة بين الناس ، ومستقلة عنهم فى نفس الوقت ، وبأنها جزء من عالم الظواهر ، لا يحتاج لخبرة فردية تؤكد وجوده ، وفى نفس الوقت يتشابه كل الناس فى القدرة على الإتفاق على التحقق من وجوده (١) .

والحقيقة إن إقرار « رويس » بوجود هذا التشابه بين العقل والمادة ، أو بين الوعى الإنسانى والوعى الطبيعى ، يؤدى إلى إقتراب « رويس » من أنصـار المذهب المـادى الذين يصفون المادة أو الطبيعة بأنها تتميز بالقوة والتنوع والحركة والتفكير ، ولا يقرون بوجود جوهر روحى مستقل عن المادة ، كذلك يقرر « رويس » أن وعى الطبيعة يسعى لتحقيق المثل العليا ، ولا يقل فى الدرجة أو النوع عن الوعى الإنسانى ، إلا يمكن إن يكون وعى الطبيعة أشمل من وعى الإنسان ويحويه ؟ ألا يمكن إن يكون وعى الإنسان ما هو إلا صوره من صور الوعى الطبيعى ؟ حقيقة إن « رويس » قد فرق بين كلا النمطين من الوعى ، عن طريق الإختلاف فى طول المدة الزمنية للوعى ، أو للإدراك ، ولكن ما الذى يمنع أن يكون الوعى الانسانى ذاته جزءاً من وعى الطبيعة ؟ والحقيقـة إن مثـل ذلك القـــول قد يتسق مع فكـر «رويس» ، فاذا كان «رويس» لا يقر القول بالخلق من العدم ، أو لا يصف الله بأنه « خالق » فإن الإنسان لن يكون الإنتـــاج الطبيعة ؟ وإذا كـان لا وجـود لطـبيعة معينة أو لاواعية ، وإنما هناك حياة وكفاح (٢). وإذا كان الماديون يعتبرون أن الصفات التى تنسب عادة لله ما هى إلا الصفات التى ينسبها الناس عادة للمادة فوصف الله بأنه أزلى ، فالمادة أزلية، ووصفه بأنه خالق، فمن الماده صنع كل شىء ، إلى آخرالتأويلات التى يقدمها الماديون (٣). إلا يكون بذلك مذهب « رويس » الروحى الواحد المثالى ما هو إلا المذهب المادى ؟

---

(١) Ibid., p.171.

(٢) Ibid., p.231.

(٣) د . توفيق الطويل : أسس الفلسفة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ص ٢٤٠ – ٢٤٥ .

ثانياً : الطبيعة المادية

أ – مفهوم الطبيعة

يرى « رويس » أنه من الضرورى قبل وضع تعريف دقيق لمفهوم الطبيعة ، أنه لا بد من دراسة التعريفات الشائعة المختلفة لها . فأولاً هناك من يعرف الطبيعة بأنها كل ما يقع تحت دائره الحس ، وتدرسه العلوم التجريبية . والحقيقة إن مثل هذا التعريف ، لا يعد تعريفاً دقيقاً ، فلا معنى للمعرفه الحسية ، إلا إذا تم تنظيمها وتفسيرها فى ضوء نظرية معينة ، كذلك ما تقدمه العلوم التجريبه ، يكون عباره عن مجرد فكره عن عالم موجود . وثانيا ، أحيانا ما يتم تعريف الطبيعة بوضعها فى مقابل العقل ، وتتم المقارنه بين العمليات العقليه والعمليات الطبيعية ، بعد الفصل بينهما ، والحقيقة ان الطبيعة وعملياتها ما هى الا تعبيراً عن عقل او عمليات عقلية . وهناك تعريف ثالث يضع الطبيعة فى مقابل الانسان ، وان كان من الواضح أن الإنسان يعد جزءاً من الطبيعة ، بل وفى نفس الوقت ، يعد مفهوم الطبعة ذاته ، مفهوماً ومعتقداً انسانيا . ويعتبر تعريف رابع الطبيعة عالماً منفصلاً عن التجربة الشخصية ، ويضعها بين الإنسان والمطلق ، والحقيقة إن كل هذه التعريفات لا تخلو من التناقض ، وإذا كان هناك رغبة لمعرفة معنى الطبيعة أو المقصود بها ، فلا بد من البحث أولاً عن الدوافع التى أدت إلى إعتراف الإنسان بوجود المادة ، وإلى الإعتقاد فى وجود قوانين للعمليات الطبيعية .

ولقد ظهرت عده تفسيرات لمعرفة كيف توصل الإنسان لإدراك المادة ، منها مارد تلك المعرفة الى الحس ، ومنها ماردها إلى الأفكار الفطرية ، وهناك من ردها إلى الخبرة العلمية المنظمة ، واخيراً منها ما برر ادراك المادة بالاستناد إلى فكرة « المقاومة » . والحقيقة أن دراسة المعرفة الانسانية ، قد بينت إن ادراك المادة لا يتم عن طريق الحواس فقط ، أو عن طريق الأفكار النظرية ، فلا توضح الحواس الوجود الحقيقى للأشياء ، ولا وجود لأفكار

فطرية يدرك الإنسان بها المادة . كذلك لا تعد الخبرة العلمية المنظمة، ضماناً كافياً لوصف المادة بالوجود ، فموضوعية العلم ليست دليلاً على وجودها خارج العقل الانسانى . أما تفسير نشأة الاعتقاد فى وجود العالم الطبيعى ، من احساس الانسان بمقاومة الموضوعات المادية لارادته ، وأن طالما لكل معلول علة ، فالطبيعة المادية علة « المقاومة » التى تواجهها الارادة . عند تعاملها مع العالم (١) . فالحقيقة وبالرغم من تأكيد هذا التفسير عن وجود صلة بين الإرادة ووجود العالم ، إلا انه لا يؤكدها من خلال تحقيق الاهداف الداخلية للارادة ، وانما من خلال « المقاومة » للإرادة . كذلك يفترض التفسير مسبقاً صحة « مبدأ السببية » وانطباقة على عالم خارجى هناك . والواقع أن « مبدأ السببية » ، اذا ما تم تحليله ، فانه يعنى أن كل واقعة تحدث ، لا بد أن يتم تفسيرها من خلال علاقتها بالوقائع الاخرى . لذلك يرى « رويس » أن القول « بالمقاومه » ، يعنى أن « مبدأ السببية » يكون معروفاً بصورة مسبقة ، بأنه يحكم العالم الواقعى. ولكن إذا كان « مبدأ السببية » فى حوزة الانسان بالفعل ، فإنه يستطيع استخدامه لتفسير أى واقعة يرغبها . ومعنى ذلك أن الانسان يكون قادراً على الاعتراف بوجود عالم خارجي هناك بعيداً عن اى خبرة « بالمقاومة » ، وأن هذا العالم يكون فيه « مبدأ السببية » صحيحا . اذن لم يتم الإعتراف بوجود عالم واقعى من خلال « مقاومة » الإرادة ، وانما افترض الانسان قبل الشعور او الاحساس بالمقاومة وجود هذا العالم خارج ذاته ، وبأن وقائعه مهما كانت ، فإنها تكون مرتبطه بقانون السببية وبتجربته الخاصة (٢) .

ويرى « رويس » أن الانسان إذا نظر نظره خاصه فى باطنه لاعتقاده فى مبدأ السببية ، لسوف يلاحظ أنه يساعد على فهم كثير من الحالات الفكرية بملاحظة الإرتباطات والعلاقات السببية بينهم ، ويكتشف أن ملاحظه تلك الحالات ، ومعرفة العلاقات والإرتباطات السببية بدونهم ، قد ساعد علي تحقيق إرادته بصوره افضل ، عنها فى حالة عدم وجود مبدأ السببية وأن الإرادة قد تجسدت بصوره أكثر وضوحاً بمعرفه هذه الارتباطات السببيه داخل الفكر أو بين العمليات الفكرية . كذلك إذا تم إفتراض ، أن مثل هذه الارتباطات

(١) J.Royce : The World and The Individual p. II p. 161

(٢) Ibid., p. 162.

والعلاقات السببية ، تكون صادقة خارج نطاق العقل الانسانى ، اى تكون كائنه فى عالم خارجى هناك ، فإن الانسان يكون قد بدأ تعريف هذا العالم ، ليس بوصفه عالما يقاوم الإرادة، وانما بإعتباره عالما يجسد أحد الإهداف العقلية الهامه والعميقة (١) ، فاذا قيل ان العالم الخارجى مادى ، فانه تبعاً لهذا الفرض ، يكون من الناحية السببية مفسراً للوقائع الجزئية التى تظهر فى حياةالانسان وتجربته ، وبذلك يكون العالم الخارجى عبارة عن تجسيد واقعى لهدف يظهر داخل الانسان . إن الفحصً الدقيق للقول بالإحساس بالمقاومة كتفسير لنشأة الاعتقاد فى وجود العالم الخارجى ، يبين أنها صورة صور المثالية ، وأنها تؤكد أن طبيعة الأشياء عقلية ، وأن الاشياء والوقائع الخارجية ما هى إلا تحقيقاً لاهداف عقلية. لذلك يرى « رويس » أن حل مسأله الإعتقاد فى وجود الطبيعة ، لا بد وأن تحل فى ضوء « المفهوم الرابع للوجود » ، فاذا إراد الانسان أن يفهم ماذا يعنى بالطبيعة ، ولماذا يعتقد فى وُجودها ؟ يجب أن يسأل أولا : ما هو الهدف الباطنى الذي يكون لدى الإنسان ، ويتطلب هذا التجسد ، والذى يبدو للعقل الانسانى ، بأن وجود الطبيعة الخارجية فقط ، او الاعتراف بوجود المادةالخارجية ، يستطيع تحقيق هذا التجسد لهذا الهدف (٢) .

ب – صفات العالم المادى :

اذا كانت الطبيعة الخارجيه تحقيقاً لهدف ولارادة معينة ، وكان الحكم بوجودها مرتبطا بالوعى الإجتماعى ، فمن أين جاء الفصل بين الطبيعة المادية والحياةالباطنية للإنسان ؟ فلقد بات واضحاً أن الانسان ينظر للعالم المادى ، كشىء مختلف عن العقل ، ويتصف بالالية وثبات القوانين ؟ يجيب « رويس » بأن الحياة الإجتماعية الإنسانية تعد المسئوله عن هذا الانتباه للتباين بين الأفراد والإشياء . فلم تظهر الفجوة وإتساع الهوة بين العقول والأشياء المادية من تجارب انسانية معينه ، أو من تجارب الإنسان الخاصة ، وإنما بسبب العمليات الإجتماعية ، ومن خلال تعامل الإنسان مع الأفراد الآخرين من بنى جنسه من جهة ، ومن التعامل مع الاشياء من جهة أخرى . فمع تطور الإنسان ، ونمو الوعى الخلقى وإنتظامه ،

---

(١) Ibid., p. 163.

(٢) Ibid., p. 165.

وزيادة سيطرة الإنسان على الموضوعات الطبيعية ، بدأ الإنسان يدرك الانفصال بين العقول والاشياء . ومع زيادة النمو الحضارى ، وإكتساب الإنسان للثقة فى قدرته على تحقيق اهدافه بالعلم والفنون ، بدأ يزداد احساسه بوجود الافراد من بنى جنسه ، بإعتبارهم كائنات حية ، تتشابه إرادتهم وإهتماماتهم ، بالرغم مما قد يكون ظاهراً من خلافات وإختلافات إجتماعية بينهم. وترتب على ذلك الإحساس ، أن الانسان بدأ يسلك فى نسق منظم من الإستجابات لبيئة إنسانية يعترف بمعقوليتها ، ويعتبرها كلاً منظما ، وبذلك بدأ يظهر النظام الإجتماعى . ثم مع التطور بدأ الانسان المتحضر ينسب للعالم الطبيعى نفس العلاقات العامة التى نسبها للنظام الإجتماعى . فعندما حاول الأفراد تحقيق التعاون أتجهوا الى توحيد الكثرة فى خبراتهم ، وحددوا وميزوا فى عالم الطبيعة ، الموضوعات التى يمكن التفاق عليها ، باعتبارها أسساً لافعال تعاونية محددة . لأنهم من خلال العلاقات المشتركة بالظواهر الطبيعية ، يمكنهم التعبير عـن مقاصـدهم وخطط أفعالهم بصورة إجتماعية مفهومة (١) .ولم يعد ينظر للطبيعة بوصفها موضوعاً بين كائنين إجتماعين ، وإنما باعتبارها مستقلة وغريبة عن كل الأفراد ، وبات تفسير ظواهرها يتم من خلال مقولات عقلية مثل اكتشاف البينية ، والبحث عن الموضوعات الوسيطة ، والمقارنة بين خبرات الافراد وتجاريبهم ، فاصبح ما يتم خضوعة للتجربة الإنسانية العامة ، ولقوانين محددة ويتصف بالثبات ، هو ما يسمى « بالطبيعة » .

السؤال الذى يفرض نفسه الأن ، إذا كان الإنسان يدرك العالم الطبيعى ، كموضوع قابل « للوصف » ، وتحقق لخبرة مشتركة، فمن أين يدرك الطبيعة بوصفها خاضعة للسببية ولقوانين ثابتة ، بينما لاتوضح التجربة الانسانية ، الإ حالات جزئية من الظواهر الطبيعية ؟ ويرى « رويس » أنه قد تتم إجابه هذا التساؤل ، بـأن دراسة أى سلسلة منتظمة من الأحداث ، يتضمن ملاحظة بعض الملامح الثابتة خلال تحولات وإنتقالات الاحداث ، وبذلك يمكن وضع قانون ثابت للتابع . ولكن الحكم بوجود روابط سببية ، يتضمن فى الحقيقة اكثر من ذلك لانه يعنى حدوث نفس العلاقات بين الاحداث ونتائجها فى أزمنة وأماكن مختلفة ،

(١) Ibid., p. 148.

وذلك يتطلب أكثر من مجرد ملاحظة التسلسل المنتظم للإحداث . إذن المسألة ليست مجرد ملاحظة « التتابع » ، وإنما أصبحت المسألة تتعلق « بالثبات » ، وبذلك يتحول التساؤل عن لماذا يدرك الانسان ، أن الانتقال فى الزمان والمكان ، لا يؤثر على القوانين الصحيحة للطبيعة (١) ؟ الحقيقة أن اكتشاف ثبات قوانين الطبيعة ، لا يعد بديهية واضحة بذاتها ، وليس نتيجة احكام تجريبية ، وانما استمد وصف قوانين الطبيعة « بالثبات » قيمته من العلاقات والإهتمامات الإجتماعية ، ومن الاهمية والقيمة الإجتماعية لاكتشاف اتساق القوانين . حقيقة يتم إكتشاف القوانين وثباتها فى الطبيعة ، ويمكن التحقق منهم فيها ، وفى خضوع ظواهرها لتلك القوانين ، ولكن لا يعود هذا الإكتشاف إلى إى افكار فطرية ، او الى مبدأ اولى فى العقل ، وإنما أدركه الإنسان بسبب دوافع إجتماعية ، وإهتم به واعتبر « ثبات » القوانين كما لو كان صفة عامة للطبيعة الموضوعية (٢).

والحقيقة أنه من السهل عند تتبع ظهور مفهوم « الطبيعة » فى تاريخ الفكر الانسانى، ادراك تأثير الدوافع الاجتماعية ، بالنسبة للصفات التى نسبها هذا الفكر الانسانى للعالم الطبيعى . ففى البداية لم يكن لدى الانسان البدائى أى فكرة فطرية عن ثبات قوانين الطبيعة ، وكانت الفنون الصناعية والتجارة والعادات الاجتماعية ، المصادر الثلاثه الأساسية لاهتمام الانسان ، بثبات القوانين . فالفنون مثلاً تتطلب ثبات صفات المعادن والحجارة ، والا إستحال تعلمها ، وإنتقالها من جيل إلى جيل ، فبحث الانسان عن مواد تناسب فنونه ، وذات صفات ثابتة نسبياً فى الزمان ، وأدى الاكتشاف « للثبات النسبى » لهذه الموضوعات والمتحقق منه إجتماعيا ، الى الاعتراف « بالثبات » كحقيقة موضوعية . كذلك أدي حسم الخلافات التجارية باستخدام المقاييس والأوزان ، الى ملاحظة الصفات الثابتة لموضوعات القياس ، وإلى ظهور فكرة جديدة عن الطبيعة وموضوعاتها ، شكلت فيما بعد كل أسس العلوم الكمية . كما ادت العادت الاجتماعية المتصلة بالمناسبات الاجتماعية وأوقات الحصاد ، الى البحث عن ظاهرة طبيعية مشتركة ، يتم بها تنظيم أوقاتها ، فظهر القانون الطبيعى للسماء . ومع ظهور العلوم الخاصة تحررت مفهوم « ثبات » القوانين من الدوافع

---

(١) Ibid., p. 190.

(٢) Ibid., p. 194.

العملية والإجتماعية ، وفرض نفسه كبديهية واضحة بذاتها على الفكر الحديث ، بينما أصله كان عملياً وإجتماعياً (١) .

إن اى تفسير للطبيعة وصفاتها ، لا بد أن يدرك أن الفصل بين المادة والعقل ، قد نشأ من دوافع اجتماعية معينة ، وإذا كان نجاح التصورات العملية الحديثة ، قد أدى الى النظرة الآلية للطبيعة ، وإلى إعتبار أن المادة والعقل كائنان منفصلان ومتباينان ، فإن اصل هذا التباين ، يكمن فى رؤية الانسان لوقائع الخبرة ، وفى اهتمامه بالتنظيم الإجتماعى ، واذا كانت الفنون الصناعية القديمة قد نظرت لوقائع الطبيعة كمجرد أدوات ، لا حياة فيها ، وأنها وجدت لتحقيق غايات الانسان ، وإتجهت العلوم الحديثة إلى إعتبار الوقائع الطبيعية مجرد تجسدات لمجموعة من التصورات والمعادلات وليس لها قيمة باطنية أو هدف ، فإن كلا من الفنون القديمة والعلوم الحديثة ، مجرد تعبيرات عن نظرة الانسان للطبيعة ولا تقدم هذه الفنون وتلك العلوم تفسيراً حقيقياً للطبيعة. فالتجارب والخبرات الطبيعية،مجرد لمحة من عالم أوسع ، هدف أكبر ، يكون الانسان جزءاً منه ، وتحقق فيه الوحدة النهائية مع الله (٢).

جـ – التفسيرات العلمية للطبيعة

اذا كان إعتقاد الانسان فى وجود الطبيعة والفصل بين المادة والعقل قد نشأ بسبب دوافع إجتماعية وإنسانية ، فهل يمكن أن تؤدى نظرة أعمق للطبيعة ذاتها الى الغاء هذا الفصل ، وإلى اكتشاف وجود صلة عميقة ، بين الطبيعة أو المادة أو ما يبدو خارجياً والوعى الانسانى ؟ يجيب « رويس » على هذا التساؤل بأن الطبيعة تظهر للانسان مكونة من عالمين . عالم مادى ثابت محكوم بقوانين ثابتة نسبيا ، وعالم باطنى أو عالم الوعى ، وهو عالم متغير ، ولا تتشابه وقائعه أو صفاته مع العالم المادى . وبعد توضيح مذهب التطور ، ولامكانية عبور الفجوة بين العالمين، حاول الفلاسفة البحث عن الرابطة التى يمكن ان يتم التوحيد بها بين العالمين . فظهر الإتجاه نحو التوحيد بين العقل والمادة ، برد العقل إلى

---

(١) Ibid., p. 178

(٢) Ibid., p. 204.

المادة ، واعتباره مظهراً لها ، وذلك بحجة ان المادة لها قوانينها الثابته والواضحة ، والعقل مجهول وغامض . الا أن هذا التجاه ، قد أدى الى نتيجة عكسية الى حد ما ، اذ قد بدأ يلفت الانتباه الى المادة والى البحث عن صحة الصفات المنسوبة اليها ، وما اذا كانت هذه الصفات حقيقة ونهائية . فإذا ما ظهر أن ثبات المادة مجرد وهم ، وتم افتراض وجود عمليات طبيعية شبية بالعمليات العقلية ، الا يكون ما يسمى مادة ما هو الا مظهراً لما يسمى عقلاً ؟ واذا ما ثبت صحة هذا الفرض ، وإكتشاف أساس تجريبى له ، الا يؤدى ذلك الى معرفة حقيقيه بطبيعة الإشياء (١) ؟

حقيقة ان العلم لا يدعى الوصول الى معرفة بالطبيعة الباطنية للاشياء ، ويكتفى بوصف الظواهر الطبيعية ، ومعرفة القوانين التى تخضع لها ، ودائما ما يصبح السؤال عن مدى معرفة العلوم او العلم بالطبيعةالعميقة للاشياء ، سؤالاً عن مدى اتفاق قوانين العلم مع الوقائع الطبيعية ، المنفصلة عن الانسان . ولذلك لا تقدم قوانين العلم اى تقارير صحية عن الاشياء كما يلاحظها الإنسان ، وإنما هى عبارة عن أنماط ونماذج فكرية ، وجدها العلم مقنعة لتحقيق أو لتقـديم وصف نظرى مختصر لخبرات متعددة . فلا يستطيع الانسان مثلاً ، ملاحظة النظرية الذرية وقوانيها ، ولم يلاحظ فرد ما مثلاً « الذرة » أو موجاتها ، لأنها عباره عن موضوعات فكرية أو بناءات صورية فكرية ، تمكن الإنسان من تلخيص اكبر قدر من الوقائع . كذلك لم يتحقق احد من قانون الجاذبية تحققا مباشراً ، فقط يلاحظ الفرد سقوط الاشياء ، او يتنبأ او يتحقق ، ولكنه لا يلاحظ مباشرة الصيغة الفكرية المسماة بالجاذبية . فكل ما هناك ان هذه الصيغة قد مكنت من تلخيص مجموعة من الظواهر . لذلك فقوانين الطبيعة عبارة عن « بناءات فكرية » ، يستخدمها العلم لحفظ التفسيرات الانسانية للواقع . ويكون صدق هذه القوانين ، مشابه لصدق السجلات التجارية . ولا تعبر عن اى حقيقة نهائية للظواهر الملاحظة أو لمسالك الطبيعة (٢) .

الا ان « رويس » يرى أن هناك نمطاً ثانيا من القوانين العلمية ، يتناقض ويختلف عن نمط القوانين الصورية والبناءات الفكرية ، وهذا النمط الثانى عبارة عن « تعميمات » ، تتعلق

(١) Ibid., p. 215

(2) Ibid., p. 216.

بوصف الظواهر الطبيعية ، ويشترك الفهم العام مع العلم فى ملاحظها ووضعها . فمثلاً القانون القائل ، « بأن الكائن الحى ينمو ولا يصغر» أى قانون العمليات التى لا تعكس ، ويشترك الفهم العام مع العلم فى ملاحظته فى الطبيعة وعبر عنه العلم بقانون تحول او انتقال المادة من صورة الى اخرى ، وعدم عودتها الى حالتها الاولى . لذلك « العمليات اللاعكسية » هى الصفات الحقة للعالم الطبيعى. ويوافق عليها العلم وحكم الخبرة الاجتماعية . حقيقة قد لا يدرك الانسان بها ، الحقيقة الباطنية للطبيعة ، ولكنه يستطيع ان يعرف منها السلوك الصحيح للظواهر الطبيعية (١) .

ويرى « رويس » أن هذا النمط من القوانين ، يختلف عن النمط الأول اختلافاً يصل الى درجة التباين . فالأول يخص العلم وحده ، بينما يشترك فى النمط الثانى العلم والفهم العام النوع الأول من القوانين ، عبارة عن تلخيص لخبرات عديدة فى صورة معادلات رياضية يمسك بها العلم حساباته ، وتدرك وتنظر للعالم الطبيعى كما لو كان قابلاً للملاحظة ، بينما هى نفسها ، غير قابلة للملاحظة ، ولذلك قد يستبدلها العلم بقوانين أخرى جديدة . وأما النمط الثانى من القوانين ، عن العمليات التى « لا تقبل العكس » أو الالغاء ، فإنها تصف وتوضح بصوره مباشرة الظواهر الطبيعية بالفعل ، ويمكن ملاحظتها . كذلك يلاحظ ان بينما يؤدى النمط الاول الى تأكيد الفصل بين المادة والعقل ، لأنه يتعلق بالمادة ، فإن النمط الثانى ، تشترك فيه المادة والعقل ، وينطبق على العالم الطبيعى والعالم الاخلاقى . اذ يمكن تطبيق قوانين النمط الثانى على العمليات الفكرية والعمليات الطبيعية وعلى صور الطاقة وعلى وقائع العالم الاخلاقى ، فاعمال الإنسان وافعاله التى لا تلغى ، تعتبر حالة من حالات قانون العمليات الطبيعية التى لا تعكس . لذلك يرى « رويس » أن هذا النوع الثانى من القوانين التى يشترك فيها العلم ، الفهم العام ، ينطبق على الظواهر المادية والظواهر العقلية . وإذا ما تم التمييز بين البناءات النظريةللعلم ، والقوانين والتصميمات التى تتناول الظواهر الطبيعية المباشرة ، والقابلة للتحقق المباشر بالخبرة ، فان التباين بين المادة والعقل يختفى ، او يظهر أقل مما كان متصوراً (٢) .

---

(١) Ibid., p. 217.

(٢) Ibid., p. 219.

بعد هذا العرض لتفسير « رويس » للطبيعة ، مـن الواضـح أنـه يجعل الحضارة ونمو الوعى الاجتماعى مسئولاً عن الفصل بين المادة والعقل ، واعتمد فى هذا التعليل للفصل على تشبيهاالإنسان البدائى بالطفل، وتشبية مرحلته الحضارية وبمرحلة الطفولة ، التى تكون الاشياء مختلطة فيها ، فلا يستطيع الطفل التمييز بين جسده والاشياء او ما يخصه وما يخص الخارج · ومع نمو الوعى الإجتماعى لدى الطفل يبدأ فى التميز والفصل بين ما هو مادى وما هو عقلى · وبنفس المنطق ينظر « رويس » للوعى الحضارى ويرى أن كلما زاد الوعى الحضارى زادت النظرة المادية من جهة والعاطفة الإنسانية من جهة أخرى ، وبالتالى ظهر الفصل الشديد بين الماده والعقل ، أو بين الطبيعة والانسان · والحقيقة أن « رويس » لم عتمد على تقرير هذا الفصل بين المادة والعقل ، على تاريخ الفلسفة او على عرض لتاريخ الثنائية ، كما ظهرت عند « ديكارت » ، وانما اعتمد على علم النفس ، وأقر الفصل بين المادة والعقل ، وحاول رده الى نفس النظرة الاجتماعية ، التى أدت بالنسان للاعتراف بوجود الطبيعة (١) · اذ يرى ان نفس الدوافع الإجتماعية التـى ادت بالإنسان للاعتراف بوجود المادة ، هى التى ادت إلى الاعتقاد فى الفصل بين المادة والعقل ، وبذلك تصبح العلاقات الاجتماعية ، ونموها ، وتطور الوعى الإجتماعى ، مسئولاً عن اتساع الهوة بين عالم العقل وعالم المادة · ومن الواضح من هذا التحليل لوجود الفصل بين العالمين ، اعتماد « رويس » على علم النفس ، خاصة علم نفس النمو ،وتتبع مراحل نمو الوعى الاجتماعى ، وبذلك ترتد دراسة العالم الطبيعى لدراسة الوعى الاجتماعى أولا ، ثم لدراسة الوعى النفسى الانسانى الفردى ثانيا · وبذلك يظل « رويس » فى دائره المثاليين ، وتصبح دراسة الطبيعة درساة للوعى الانسانى ·

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، ألم يكن هناك قبل هذه الطفرة الحضارية للوعى ، والتى يعدها « رويس » مسئولة عن إتساع الهوة بين الموضوعات المادية وعالم العقول ، تمييزا وفصلاً بين ما هو مادى وما هو عقلى ؟ أكان الانسان فى العصور القديمة ، لا يفصل بين الأفراد والموضوعات المادية ؟ والحقيقة ان ربما كان انسان الماضى ينظر للطبيعة

(١) Ibid., p. 175.

نظرة تشخيصية ، فيصبغها بصفاته وإنفعالاته ، إلا أنه كان يفعل ذلك بالنسبة للظواهر التى لا يجد تفسيراً لها ، ولا يعنى ذلك أنه كان يوحد بين العقل والمادة ، أو الأفراد والجماد ، لأن ذلك لا يستقيم مع التجربة ، أو أبسط مبادىء الإستدلال .. وبغض النظر عن حرص « رويس » فى إستخدام عباره إتساع الفجوه بين العقل والموضوعات المادية ، ونسبته هذا الإتساع لإنسان العلم والحضاره (١) ، إلا أن ذلك لا يعنى أن إنسان الماضى كان يوحد بينهما تماماً ، مثلما يوحد الطفل بين جسده والأشياء المادية ، فإنسان الماضى كان ينسب عقلاً أو روحاً أو حياة باطنية لما غمض وإستعصى عليه فهمه من الظواهر الطبيعية .كذلك ولئن كان العلم قد سلب عن الطبيعة تلك الصفات الإنسانية أو الإلهية ، نسبها الإنسان البدائى إليها ، فإنه أيضا قد سلب الطبيعة صفاتها المادية ، والتى أكدها العصر الحديث للطبيعة ، فلقد تم تحليل المادة ، وتحللت إلى الكترونات وأصبحت لا تخضع لميدان اللمس او البصر ، ذلك الميدان الذى بنى عليه « رويس » نظريته فى إدراك الإنسان للأشياء ، فى عالم اللمس والبصر ، بوصفها موضوعات لخبرة مشتركة . ربما إذا لم ينسب « رويس » إلى العلم مسئولية إتساع الفجوة بين العقل والمادة لإستقامة النظرية ، وكانت العلاقات الإجتماعية مسئولة عن ذلك الفصل والتمييز ، ولكن إعتبار العلم مسئول عنه ، فذلك أمر يتناقض مع العلم الحديث ، الذى أفقد المادة صلابتها وحولها الى ذرات والكترونات ، وبذلك يمكن إعتبار العلم مسئولاً أيضا عن إلغاء الفصل بين ما هو مادى وما هو عقلى .ويلاحظ عند تناول « رويس » لمسألة الفصل بين جانبى الطبيعة ، أنه يقصد العقل والمادة ، وأحيانا يقصد العالم الإجتماعى والعالم المادى ، أى وجود الأفراد ووجود الأشياء ، وأحيانا يقصد الروح والمادة لذلك من الواضح أنه يقصد بالطبيعة «العالم » أو الكون ، ولكن يلاحظ انه يستخدم كلمة « الطبيعة » أحيانا أخرى للإشارة إلى الأشياء المادية فقط أو إلى الجماد ، وبالتالى تصبح كلمة « الطبيعة » مرادفة لكلمة « المادى » أو العالم الطبيعى هو العالم المادى فقط ، ومنفصل عن العالم الإجتماعى أو الأفراد . وفى موضع ثالث يستخدم كلمة « الطبيعة » للإشارة الى « عالم الوصف » فى مقابل « عالم التقدير » أو عالم العقول ،

---

(١) Ibid., p. 175.

والحقيقة أن هذا الإستخدام الغامض لمصطلح الطبيعة ، يؤدى الى صعوبة الفهم الواضح للمعنى الواضح للمعنى .

والحقيقة أن تفسير « رويس » للطبيعة تفسير تقليدى ، أو ليس جديداً فى تاريخ الفكر الفلسفى . فإذا كان « أفلاطون » قد قال بعالم الظاهر والباطن ، وقال « كانط » بالأشياء كما تبدو لنا ، وعالم الأشياء فى ذاتها ، فإن « رويس » قد بنى نظرته للطبيعة على تلك النظرة الثنائية ، فهناك الطبيعة كما يدرسها العلم أو عالم الوصف ، وهناك الحقيقة الباطنية للأشياء ، والتى إعتبرها « رويس » خارج نطاق المعرفة المباشرة العادية أو المعرفة العلمية ، وكأن « رويس » يقر بالثنائية الكانطية ، وبدلاً من القول بعالم الأشياء فى ذاتها أو العالم الخفى وراء الظاهر ، قال بوجود وعى محدود وراء أحداث الطبيعة (١) . وإذا كان « أفلاطون » يعتبر المثال أساس الواقع ، ويرى « كانط » أن عالم الأشياء فى ذاتها أساس الظاهر ، فإن « رويس » قد إعتبر الوعى وراء أحداث الطبيعة ، فأحداث الطبيعة ، تعبر عن وعى يشابه الوعى الإنسانى ، ويشير إلى وعى أخر أوسع منه يشمله مع الوعى الإنسانى (٢) ، ويتفق تفسير « رويس » للطبيعة مع فكر « شلنج » ، فالطبيعة ما هى إلا تعبيراً عن وعى ، وهناك مصدر واحد للأنا وأللأنا (٣) . حقيقة لم يقل « رويس » بمبدأ الهوية » أو وحدة الأنا والطبيعة ، وإنما جاء تفسيره للطبيعة إثباتاً لمعقوليتها ، ولوجود وعى ورائها يشابه الوعى الإنسانى ، وكلاهما يدلان على وجود عقل مطلق ورائهما . وبذلك يشارك رويس المثاليين الألمان فى محاولة حل الإشكالية الكانطية ، والمتمثلة فى الفصل بين النظرى والعملى ، أو فى القول بوجود عالمين . كما تتفق نظرية « رويس » للطبيعة فى كثير من جوانبها مع آراء « شارلز بيرس » فى إعتبار أن الطبيعة قد ظهرت نتيجة إتفاق الأفراد والجماعات ، وماهى إلاعلامات ضرورية لقيام العلاقات الإجتماعية (٤) . وبذلك تبدو نظرية « رويس » فى الطبيعة ما هى إلا صورة من صور محاولات للتوفيق بين المثالية الألمانية والبراجماتية . وإن كانت تدور فى إطار المثالية .

---

(١) J.Royce : The World and The Individual , p.11p. 228

(٢) Ibid., p. 231.

(٣) F.Copleston , S.J . : A History of Philosophy , Schelling Vol.7, pI.129

(٤) Ibid. Vol. 8, p. 11, p. 70.

ويأتى تفسير « رويس » للطبيعة متفقاً ومساراً لنظرية التطور ، وللمحاولات الفلسفية التى نتجت عنـها . ولحـل إشكالية الفصل بين المادة والعقل ، طالما أن الإنسان نتاج الطبيعة ، فلقد إعتبر « رويس » أن عالم المادة وعالم الأفـراد أو العقول عنصـران أساسيان ، وحاول بيان النشأة الإجتماعية لمفهوم الطبيعية ، والصلة بين الواقع الطبيعى والإجتماعى ، وإعتبر أن نمو الوعى الإجتماعى والعلمى ، يعد مسئولاً عن الإتجاه للفصل بين ما هو مادى وما هو عقلى . وحاول توضيح الصفات المشتركه بين ما يسمى عقلاً وما يسمى مادة ، مثل إتفاقهما فى وجود « عادات » ، « وقوانين » مشتركة بينهما ، وهناك وعى طبيعى مثل الوعى الإنسانى ، ورد الفرق بين هذين النمطين من الوعى الى ما يسمى بطول الفترة أو المدة الزمنية للإدراك (١) . لم يتجة «رويس » إلى رد أحد العنصرين إلى الأخر ، أو أن المادة وهم ، أو القول بوجود « هيولى محايدة » أو « عنصر محايد » ، أو أن المادة ما هى إلا إحساسات ، والعقل ما هو إلا مجموعة أفكار وصور ذهنية . وإنما إعترف بوجود الأشياء ووجود الأفراد، فالثنائية قائمة ، ولكنه حاول تفسير نشأتها وعبور الفجوة بينهما . والحقيقة أن التفسير الذى إنتهى إليه « رويس » لم يحل إشكالية الفصل تماماً ، فالمادة والعقل كيانان منفصلان ، والإستدلال على وجود « وعى » وراء الظواهر الطبيعية ، ما هو إلا ترديد لنظرة الإنسان البدائى للطبيعة ، وإن كان الإستدلال عند « رويس » إستدلال منطقيا محكماً .

ومع ذلك السؤال الذى يفرض نفسه الآن ، لماذا إهتم « رويس » بتفسير الطبيعة ، أو وضع فلسفة لها ؟ الحقيقة أنه يمكن تقديم إجابتين لهذا التساؤل . الأولى منها ، أن تفسير الطبيعة خاصة فى ضوء نظرية التطور ، كان من المسائل التى تلعب دوراًرئيساً فى الصراع بين الدين والفلسفة . فلقد بات واضحاً وجود تعارض بين نتائج نظرية التطور ، والعقائد الدينية التـقلـيدية – التى تجعل للإنسان أصلا مخـتلفا عن الأصل الطبيعى ، وبذلك سعى « رويس » بتفسيره للطبيعة ، إلى وضع نظرية ، تبين فى النهاية وجود وعى وراء الأجسام مثلما هناك وعى وراء أجساد الأفراد ، وكلا النمطين من الوعى يشيران إلى وجود وعى

(١) J.Royce : The World and The Individual p.II p. 240.

أشمل منها (١) . وبالتالى يمكن تفسير محاولته لوضع نظرية فى الطبيعة ، بأنه كان يهدف إلى التوفيق بين الدين والفلسفة . وإلـى تأكيد وجود حقيقة روحية ، وإن كان الطريق اليها فلسفيا . وأما الإجابة الثانية فلقد كان « رويس » مدركا ، إهمال الفلسفات المثالية – حسب وجهة نظرة – لفلسفة الطبيعة فإتجه إلى وضع تفسير لها . والحقيقة أن ما يؤكد هذه الإجابة ، أن « رويس » قد بدأ قبل تفسيره للطبيعة ، بوضع مفهوم مثالى للوجود ، أو ما أطلق عليه إسم المفهوم الرابع للوجود ، ثم إتجه إلى وضع تفسير للطبيعة يتسق مع هذا المفهوم ، بل ومهد لذلك بتوضيح إستحاله تفسير الطبيعة تفسيراً صحيحاً فى ضوء أى مفهوم أخر للوجود (٢) ، وكأنه يحاول أن يؤكد أن الفلسفة المثالية ، قادرة على وضع فلسفة للطبيعة . كذلك وما يؤكد دفاعه عن المثالية ، أنه إعتبر مشكلة الفصل بين المادة والعقل ، المشكلة الأساسية الجديرة بالمعالجة والبحث عن أصلها ، لأنها غالبا ما تمثل عقبة أمام الفكر المثالى ، خاصة مسألة الصلة مع المادة من جانب الفكر .

كما تظهر محاولة التوفيق بين الدين والعلم بصوره خاصة والدين والفلسفة بصوره عامة فى إعتماد « رويس » على نظريات « علم النفس » وعلى الأراء الفلسفية القائمه على هذه النظريات ، فكما أن للأفراد نفساً وإرادة وراء السلوك الظاهرى ، فإن للطبيعة أيضا وعياً وإرادة وراء ظواهرها البادية والمتغيرة . وإذا كان « علم النفس » قد قدم تفسيراً لكيفية نمو الوعى الذاتى ، والوعى الإجتماعى ، فإنه قادر على تفسير الطبيعة والوعى الطبيعى . بذلك ومن منظور التوفيق بين الدين والعلم ، فإن علم النفس قد يصبح بديلاً للوحى ، ويميل التوفيق هنا إلى جانب العلم أكثر من جانب الدين ويتجه الى إعلاء شأن الإنسان ، فى العلاقة بينه وبين الله . وذلك طالما أن العلم إختراع إنسانى . فإذا كان الدين التقليدى يقدم تفسيراً للعالم ، فعلم النفس قادر على تفسير الطبيعة ، وبذلك يصبح الدين الروحى أو النفسى بدلا من الدين العقائدى . ودين الداخل بدلاً من دين الخارج . والحقيقة أن إستبدال علم النفس بالوحى ، يتسق مع موقف « رويس » فى رده كل شىء إلى الحاجة الإنسانية والوعى الذاتى الانسانى . فكل شىء إشباع لحاجة إنسانية ، وكل معرفة تبدأ

(١) Ibid., p. 228.
(٢) Ibid., p. 198.

بمراقبة الوعى الذاتى . فإذا كان الله مصدر الوحى ، فالإنسان مصدر علم النفس . وان كان « الوحمى » قادراً على تفسير الطبيعة ، فإن علم النفس لدية نفس المقدرة ، وتلك النظرة تعلى من شأن الإنسان ، فلا يحتاج إلى معرفة من الخارج ، أو لوحى يمده بالمعارف . فالفلسفة قادرة على معرفة الحقيقة الدينية ، وعلم النفس قادر على تحليل أنماط الوجود ومعرفة المطلق .

من جهة أخرى يلاحظ أن التوفيق قد يميل إلى جهة الدين ، وخصوصا تجاه الدين المسيحى ، فمحاولة تفسير الطبيعة ، وإثبات وجود وعى ورائها ، يشابه الوعى الإنسانى ، محاولة تستند على المائلة ، أو بلغه « أفلاطون » على الإيمان بوجود « المشاركة » . فالواقع أن فكرة المماثلة بين الوعى الإنسانى والوعى الطبيعى ، تقوم على الإيمان المسبق بفكرة المماثلة بين الله والإنسان ، وفكرة « المماثلة » فكرة مسيحية فى أساسها ، بل لقد إعتمد عليها أيضا القديس « توما الإكوينى » لمعرفة صفات الله (١) . كذلك يقول الله « فتكونون قديسيين لأنى أنا قدوس » (٢) ، « فخلق الله الإنسان على صورته » وعلى صورة الله خلقه (٣) ، ونعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا (٤) ، فـفكرة المماثلة التى إعتمد عليها « رويس » فى تأكيد وجود وعى للطبيعة ، مشابه لوعى الإنسان ، وإن إختلف معه فى طول المدة الزمنية للإدراك ، تعد فكرة مسيحية . كذلك إن إفتراض وجود وعى للطبيعة ، يفرق عن الوعى الإنسانى فئ طول المدةالزمنية للإدراك ، وقد يكون أرقى من الوعى الإنسانى ، بسبب طول مدته الزمنية عن الوعى الإنسانى ، يعد تصوراً دينياً ، لأنه يعطى الأفضلية لهذا الوعى الطبيعى ، وإن كان رويس قد ميز بين الوعى الطبيعى والوعى الإنسانى ، إلا أنه من الممكن إعتبار الوعى الطبيعى شامل للوعى الإنسانى بصورة ما ، وذلك طالما أن الإنسان جزء أو نتاج الطبيعة ، وطالما أن « رويس » يستخدم أحيانا حكمة الطبيعة بمعنى العالم .

وأما بالنسبة لتفسير «رويس » لنشأة الطبيعة ، وتجنب القول « بالخلق » ، أو إنها مخلوقة من العدم ، ومحاولةتفسير ظهور الأشياء تفسيراً يتسق مع نظرية التطور، ويبتعد

---

(١) اتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ترجمه امام عبد الفتاح ص ١٤٣

(٢) سفر اللاويين : ١١ : ٤٥

(٣) سفر التكوين : ١ : ٢٨

(٤) سفر التكوين : ١ : ٢٨

عن القول بالعدم . فإنه جاء متسقاً مع موقف بعض فلاسفة الدين المسيحيين ، من تفسير نشأة الكون ، والإتجاه إلى القول بأزلية أو قدم العالم ، تفادياً لإشكالات القول « بالخلق » . فإذا كان الله يقول لموسى « أهية الذى أهية » (١) ، أو أكون ما أكون ، فيدل الوجود على ما هية الله ، فإنه يقول فى عبارة أخرى « أنى أنا الرب لا أتغير » (٢) . وإذا كان فى البدء خلق السموات والأرض (٣) ، فإن الله يذكر فى هذه الآية الأولى من العهد القديم فعل الخلق ، تماماً مثلما يؤكد وجودة بقوله « أكون ما أكون »، فإذا كان الله هو الوجود وحده ، فعندئذ كل ما عدا الله ، لا بد أن يستمد وجوده ، بالضرورة من الله ، أى من الواضح أن الله يهب للكون كل شىء ما عدا الوجود نفسه (٤). بمعنى إذا كان الله هو الوجود ، فكيف يمكن أن يكون هناك شىء غيره ، كيف يخلق الله العالم وهو الوجود (٥). لذلك إذا كانت المادة فى نظر « رويس » تعبر عن وعى ورائها ، فلا بداية ولا نهاية لعالم الطبيعة . واذا كان وجود الأفراد والأجسام المادية تعبيراً عن وعى ، معنى ذلك استحاله القول بخلقهم من العدم ، لأن معنى ذلك أن الوعى كان موجوداً دون تجسيد أو تعبير . وإذا كانت « العادة » والتكرار يؤديا الى ظهور الجدة بإستمرار ، وتتشابه عمليات الوعى الإنسانى والطبيعى ، وما يحدث فى الداخل يحدث فى الخارج (٦) . فلا حاجه للقول بالخلق من العدم . وبالتالى يمكن تفسير ظهور الجدة دون الوقوع فى إشكال القول بالخلق من العدم ، وبذلك يتسق فكر « رويس » مع الفكر الفلسفى الدينى المسيحى ، ويقدم فى نفس الوقت بل ويساهم فى تقديم حلول لإشكالاتة .

إذا كان الله يخاطب الإنسان قائلا « عليك قبل كل شىء ، أن تؤمن بوجود إله واحد ، خلق كل شىء ، وأتم كل شىء ، وأخرج كل شىء من العدم إلى الوجود ، فهو بكل شىء محيط ، ولا شىء يمكن أن يحيط به ، الله قد أسس كل شىء بكلمة منه ، وهو يستطيع بنفس هذه الكلمة أن يدمر كل شىء » فالواضح من هذه العبارات أن العالم فى المسيحية يتعلق بإرادة حرة تريده ، ويمده الله بالعون المستمر ، ويعتمد فى وجوده على الله (٧). فالحقيقة إذا صح هذا التصور المسيحى للعالم ، فإن « رويس » يتصور الطبيعة تصوراً

(١) سفر الخروج : ٣ : ١٤

(٢) سفر ملاخى : ٣ : ١٤

(٣) سفر التكوين : ١ : ١

(٤) اتين جلسون : روح المسيحية فى العصور الوسطى ص ١١٢

(٥) المرجع السابق ص ١٤٥

(٦) J.Royce : The World and Individual p.11 , pp. 225-235

(٧) اتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية فى العصور الوسطى ص ١١٣

مسيحياً واضحاً ، فاذا كانت الطبيعة تجسيداً لوعى ، فلا بد ان يكون لهذا الوعى إرادة ، وأن يرغب هذه الظواهر الطبيعية ذاتها ، أى أنه يتمتع بارادة حرة تريد هذا العالم ولا تريد غيره ، فالعالم ليس عالم « أرسطو » المنفصل عن المحرك ، وإنما عالم مرغوب فيه ، بإعتباره يحقق إرادة واعية ، حقيقة لم يقل « رويس » بالنسبة لتفسير نشأة الطبيعة ، بأنها قد خلقت من العدم ، ولكن من الواضح أنه لم يجعلها منفصله أو مستقلة أو قائمة بذاتها ، أو مستقلة عن وعى يريدها هكذا أو كما هى .

كذلك يلاحظ أن « رويس » يجعل للطبيعة وجهها الروحى أو بلغة الدين وجهها المقدس فالطبيعة ليست صماء أو جماد أصم ثابت ، وإنما يراها « رويس » كائنا حياً ، لها جانبها العقلى والشعورى ، وذلك نفس الموقف المسيحى من الطبيعة أو العالم ، فالطبيعة من خلق الله ، ولها أعماق ، كامنه هناك ورائها ، ويمكن الوصول إليها بالعقل أو بالتصوف ، فحقيقة يرى المسيحى الطبيعة كغيره من الناس ، وينسب إليها نفس الصفات التى ينسبونها إليها ، ولكنه يضفى عليها طابعاً إلهيا ، جاء من فكرة الخلق ، ومن طلب الله مشاركة الإنسان فيها (١) .كذلك من الواضح أن كل تصور مسيحى للكون ، يجعل الكون محققاً لهدف ما ، أو يخدم غاية معينة ، فالرب صنع الكل لغرضة (٢) ، بمعنى أن الله صنع الأشياء جميعاً لنفسه . وهناك يلاحظ أن إذا كانت الطبيعة ، كما فسرها « رويس » تجسيداً لهدف أو لغرض وذلك يتضح من تطبيقه لمفهومه « الرابع للوجود » ، فى تفسيره لها (٣) ، فان الطبيعية لها غاية ، وأنها قد وجدت من أجلها . كذلك يلاحظ من جهة أخرى أن مثل هذا التفسير للطبيعة والذى جاء متسقاً مع روح المسيحية ، يمكن أن يؤدى أيضا إلى التخلص من أى تناقض ، قد يظهر بين المسيحية والعلم ، فإذا كانت الطبيعة تجسيداً لهدف ، أو محققه لإرادة ما ، فإن ذلك لا يتناقض مع إكتشافات العلم وإنجازاته ، لأنه مهما ظهرت قوانين جديدة ، فما هى إلا تعبيراً عن إرادة ووعي يتجسد ، وعى لا متناهى ، تعبر الطبيعة عنه دائما ، ولا تكون فى أى مرحلة من مراحل التعبير ، فى حالة إكتمال أو توقف ، فليس

---

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٤٩

(٢) الامثال : الاصحاح ١٦ : ٤

(٣) J.Royce : The World and The Indvidual p.II pp. 332-334

هناك قوانين أو نظريات نهائية . وبذلك يساهم « رويس » فى حل إشكالية العلاقة بين النظريات العلمية والعقيدة المسيحية . كذلك ألا يعتبر تفسير الطبيعة وإثبات وجود وعى ورائها ، ما هو إلا صورة للأدلة اللاهوتية التقليدية على وجود الله ، أو التى تستدل من وجود العالم على وجود الله ، أى الإنتقال من الطبيعة إلى الله ، يقول القديس « بولس » فى رسالته لأهل رومية ، رسالة اللـه ظاهرة فيهم ، لأن الله أظهرها لهم لأن أموره غير المنظورة ، ترى منذ خلق العالم ، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولا هوته ، حتى أنهم بلا عذر (١) .

ويأتى تأكيد النشأه الإجتماعية ، أو الأصل الإجتماعى لمفهوم الطبيعة ، متسقاً مع تفسير رويس لنشأة المسيحية ، وإعتبارها نتاج المجتمع المسيحى الأول ، فالمجتمع أصل الدين وأصل العالم . كذلك يأتى تأكيد النشأه الإجتماعية لمفهوم الطبيعة وصفاتها ، متسقاً مع إعلاء « رويس » لشأن وقيمه المجتمع . فلا وعى ذاتى بدون وعى إجتماعى ، ولا وجود للأشياء ، إلا بإعتقاد سابق فى وجود الآخرين ، ولا وجود للطبيعة بدون مجتمع . وبالتالى يصبح المجتمع أساس وجود المادة أو الأشياء الطبيعية . وإذا كانت النظرة التقليديه اللاهوتية للطبيعة ترى أن المادة قد إكتسبت وجودها ، بفعل قوة خارجية ، أو جاءت نتيجة لفعل الله ، فإن « رويس » يجعل « المجتمع » ممثلاً لهذه القوى ويعتبره الأساس الحقيقى لوجود الطبيعة . والحقيقة إذا كانت الطبيعة ما هى إلا مجتمع تأويل (٢) ، ولا كيان لها بدون الأفراد ، وكان المجتمع أساس نشأة الدين ، ومصدر أساس للبصيره الدينية (٣) ، ولا وجود للذات إلا بالمقارنه مع الآخرين ، والوعى الإجتماعى أسبق من الوعى الذاتى ، ولا وجود للطبيعة بدون الخبرات المشتركه (٤) ، فالوجود الإجتماعى اسبق من الوجود الطبيعى ، فالمجتمع إذن أساس كل « أنماط الوجود » ، الأمر الذى يحدث نوعاً من الخلط والتشوش دائما . ويؤدى دائما الى ظهور التساؤل أيعتبر « رويس » «المجتمع» هو« المطلق » أو الله ؟

والحقيقة أن تفسير الطبيعة ، والقول بوجود وعى ورائها ، يتصف بصفات معينة قد ، تزيد عن صفات الوعى الإنسانى ، أمر قد يثير الخيال والعاطفة ، ويثرى الوعى الدينى ،

---

(١) بولس : الرسالة الى اهل روميه ، الاصحاح الاول ايه ١٢/٢٠

(٢) J.Royce : The World and the Individual , p.II p. 11, pp.160-166

(٣) J.Royce : The Sources of Religious insight pp.50-54

(٤) J.Royce : The World and The Individual p.IIpp. 166-170

ولكنه فى نفس الوقت يقلل من الوعى العلمى ومن تقدم العلم بصورة ، فالعلم يهدف للسيطرة على الطبيعة ، ويحاول التغلب عليها ولقد وضح أن النظرة للطبيعة باعتبارها مادة صلبة أو ثابته ، قد أفادت البشرية ، حقيقة أن وجود هذا الوعى الطبيعى ، قد يفيد فى إدراك الأنسان لمعقولية الطبيعة ، وأن منطق الأشياء منطق العقل ، إلا أن القول بوجود هذا الوعى ، أو تفسير الطبيعة من خلاله ، تفسير يفسح المجال للخرافة ، والبعد عن الموضوعية، ويؤدى إلى الإغراق فى الذاتية ، ويفيد الشعراء أكثر من العلماء . وإذا كان « رويس» قد إعتمد فى إثبات هذا الوعى الطبيعى ، على المماثلة والصفات المتشابهة بين عمليات الطبيعة وعمليات العقل ، فإن هذا الإستدلال يشكل فى نفس الوقت خطورة على النظرة الموضوعية للطبيعة ، ويفسح المجال لصبغ الطبيعة بصفات إنسانية أخرى كالعواطف والإنفعالات ، الأمر الذى يشكل عقبة أمام البحث العلمى . إن معرفة الإنسان بوجودة مادة هناك ، يخلق الصراع والتحدى ، ويحفز الإنسان نحو البحث والدراسة ، ومحاولة فهم الطبيعة فهماً موضوعياً .إن إستنتاج وجود وعى للطبيعة ، وأنها تجسيد لوعى شامل ، ما هو إلا نظرة صوفية ، تؤكد أو تشير الى القول بوحدة الوجود ، وتخاطب القلب بدل من العقل ، وإذا كان « رويس » قد فسر الطبيعة بمقولات منطقية محكمة ، « كالتباين » « والمقارنه » « والبينية » فإنه قد حول الوجود الطبيعى الى وجود منطقى ، وإنتهى إلى نظرة صوريه ، والحقيقة أن كلا النظرتين الصوفيه والصورية ، لا يقدمان تفسيراً يخدم تطور العلم ، أو الدراسة الموضوعية للطبيعة .

كذلك يلاحظ أن الإستدلال على وجود وعى وراء المادة ، لا يهدف إلى تفسير الطبيعة بفرد ما يهدف إلى إثبات المطلق ، وكان « الطبيعة » ما هى إلا دليلاً على وجوده ، وبذلك يصبح التفسير دينيا ، فالمطلق هوالغاية النهائية ، وكأن الطبيعة لا قيمة لها فى ذاتها ، وإنما قيمتها فى أنها تشيد إلى حقيقة ورائها . كذلك يبدو أن تفسير الطبيعة عند « رويس » قد جاء محكوما بقيدين ، الأول منهما ، إثبات صحة المذهبية فى الفلسفة ، والثانى تقديم

تفسير مقنع لنظرية التطور . فالتفسير يتسق مع مفهوم « رويس » المثالى للوجود ، أو ما أطلق عليه المفهوم الرابع للوجود ، ومع نظريته فى المعرفة والصلة بين عالم الوصف وعالم التقدير ، والجانب المزدوج لواقعة ، وجاء متسقاً مع نظريته فى الأخلاق ، فالطبيعة غايات ومثل عليا تسعى إليها ، والحقيقة أنه بالرغم من تحقيق هذا الإتساق ، إلا أنه قد أدى إلى التعسف ونوع من الخيال ، وكأن الإتساق المنطقى ، وقدرة المذهب الفلسفى على تقديم تفسير لكل شىء غاية كبرى. وأما القيد الثانى فمن الواضح أن التفسير قد قصد به ، تقديم تبرير منطقى لنظرية التطور ، وكأن « رويس » كان وارثاً للنظرية ، ولا فكاك منها ولا بد من إثبات صحتها . فالنظرية صادقة بصورة مطلقه . وأخيراً ألا يعتبر القول بوجود وعى للطبيعة ، بالإستناد على المماثلة ، بما يحدث فى الوعى الإنسانى نظرة ذاتيه للطبيعة ؟ فما يحدث فى الداخل يحدث فى الخارج ، ويتم الإعتماد على الداخل لشرح وتفسير الخارج وبالتالى يعتبر الوعى الذاتى أساس الإعتراف بوجود الطبيعة ، وبذلك يتذبذب « رويس » بين المثالية الذاتية والمثالية المطلقة ؟ .